الصحافة وأثرها

في المجتمعات الحديثة

محاضرة الدكتور سلسبر
عميد كلية الصحافة بجامعة سيراكوز بأمريكا والاستاذ
الزائر بقسم الصحافة بجامعة القاهرة الاميركية

سيداتي سادتي : تشيد الامم الحديثة مجدها على دعائم خمس هي — زعامة دينية رشيدة وقادة محنكون في شئون التربية واساطين في فنون المال وقضاء عادل وصحافة نزيهة . لقد ذكرت الدين في مقدمتها لانه اساس الخلق المتين ومن غير الخلق المتين يتسنى له ان يحكم الشعب وأية امة كسرت شوكة الاخلاق فيها تستطيع ان تحافظ على كرامتها ومجدها بين الامم الاخرى . يحدثنا التاريخ القديم ان مصر بدأت اثر العالم يوم كان الدين فيها قويًّا ثم تدهورت من سمائها حين انهارت اركانه وتهدمت دعائمه . اما قادة التربية فلا غنى عنهم لنقل تراث امتهم العلمي من السالف الى الخلف وهم اذا قصروا في مهمتهم اسرعت شعوب اخرى فنشرت في بلادهم مدارسها واساليب التربية فيها وفرضت عليهم ثقافتها ومدنيتها فتنقطع حينئذ الصلة بين حاضر الامة وماضيها

ولرجال المال المحنكين والمصارف المالية اعظم شأن في ازدهار التجارة وانماء الصناعة والقيام بالمشروعات الاقتصادية التي تقف على نجاحها سعادة الامة المادية والامة التي لا تستطيع تثمير اموالها وتدعيم سياستها الاقتصادية هي امة ضعيفة يعاني اهلها شظف العيش ومذلة الفقر والهوان

وما احوجنا الى قضاء عادل يفقه التشريع ويطبق القوانين تطبيقاً يضمن العدالة لجميع افراد الشعب على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم فلا يرهب رجال القوة ولا يعمي المال بصائرهم وانما يضعون القانون فوق زعمائهم الشخصية بل فوق كل اعتبار آخر وبذلك تتضاعف ثقة الشعب في نزاهة حكومته والخطر كل الخطر في ضعف ثقة امة بحكومتها . اما الصحافة النزيهة فمهمتها عظيمة ومسئوليتها خطيرة فهي تضع امام الوطنيين صورة جلية من حقائق الحكم وما ينبغي ان يكون عليه اتجاههم نحو هذه الحقائق وتوضح المسائل القومية العامة ومدى اتفاقها او تعارضها مع الرغبات الخاصة للشعب افراداً او جماعات وتبين مدى تأثر المشكلات الداخلية وارتباطها بالحركات العالمية

ان مكانة الصحافة في بناء النهضة القومية لاي بلد ترتكز على مسؤولية مزدوجة: مسؤولية

الامة ومسؤولية الصحافة نفسها. فمسؤولية الامة نحو الصحافة هي ضمان الحرية لها لنشر جميع الاخبار من كل نوع يهم المجتمع الوقوف عليه سواء في ذلك الاخبار المحلية او القومية او الدولية تنشرها بدون قيد ولا شرط. وما من شك في ان اي تحديد لحرية النشر يضعف من ثقة الامة في الصحافة والحكومة معاً — الصحافة الناشرة والحكومة المقيدة. وقد لا يظهر الاثر في هذه الثقة بعد عام او جيل ولكنها اخيراً لا بد ان تنهار وتتهدم. اقول اخيراً لاني اتحدث هذا المساء عن النهضات القومية وهي لا تمتد الى شهور وسنين فقط بل الى قرون. فالامم العظيمة تضع خطتها وترسم سياستها مقدماً لعدة اجيال. اما ما يسمونه اليوم بمشروع الخمس السنوات فهو خيط واه في نسيج تقدم الامة

وقد قال ابراهام لنكلن قولاً مأثوراً أصبح مثلاً في الولايات المتحدة الاميركية وهو « قد تستطيع ان تخدع بعض افراد الشعب طول الزمن وتستطيع ان تخدع جميع الشعب ردحاً من الزمن ولكنك لن تستطيع ان تخدع كل الشعب طول الزمن » . فانهُ لا بد ان يأتي وقت يعرف فيه الشعب أن الصحافة لا تنشر من الاخبار الا ما يرضي الحكومة او ما تخدم به طبقة خاصة من طبقات الشعب او حزباً معيناً او مذهباً خاصًّا وعندئذٍ تنهار قوة هذه الصحيفة كعامل في بناء النهضة القومية . واني اكرر قولي واحذر من ان تقف الصحيفة جهودها على خدمة طبقة خاصة او حزب معين او مذهب خاص لان حرية الصحافة قد تبيحها الحكومة ولكن يقيدها الشعب . فان الصحافة التي يتعرض محرروها لسخط العامة وتتعرض دورها لمهاجمتهم لانها تنشر مقالات او اخباراً قد تتعارض مع رغبات ذلك الحزب او هذا المذهب فانها لا تعد من الصحافة الحرة ولكنها تعد مقولة مقيدة

قال الرئيس ولست ان اخبار اليوم هي غذاء الرأي العام وهذا الغذاء ضروري لجميع طبقات المجتمع لبناء عقولهم واعداد مكانهم فوق صرح النهضة القومية ومصدر هذا الغذاء هو الصحافة الاسبوعية واليومية. فان الاخبار التي ينشرها المذياع هي بعض ما تنشرها تلك الصحافة. فمن الواجب ان يقدم الغذاء كاملاً نقيًّا. ان الصحافة التي تعتمد على هيئات خاصة وتتقيد برغباتها لا تستطيع أداء مهمتها في النهضات القومية . واذا ما منحت الصحافة حريتها كاملة وجب عليها أن تبذل كل جهودها في سبيل خدمة الهيئة الاجتماعية والامة خدمة حقة تكافىء ما هيء لها من مسالك معبدة . واخص واجباتها هي خدمة الجمهور الذي يترأ اخبارها وموالاة جهودها لمصلحته

وكما ان اخص واجبات رجال القضاء خدمة العدالة وعلى اساسها يفصلون في جميع القضايا فأهم واجبات الصحافة اسعاد المجتمع وعلى قدر ما تبذله من جهود في هذا الشأن تقدر منزلتها وقيمتها وعلى هذا يجب ان تعتبر الصحافة نفسها ممهداً لخدمة العامة

وغير خاف ان كثيراً من المحررين قد لا يتسنى لهم الوصول الى المثل الاعلى الذي تطلبه الصحافة ولكن ذلك لن يقلل من مسئولياتهم نحو المجتمع فان في كل مهنة رجالاً قد لا تفخر بهم حرفتهم وليس ذلك في صناعة دون الاخرى بل في كل طبقة حتى في رجال الدين القسوس وفي رجال القضاء والتربية . ولا أريد ان اقول ان في خدمة الحكومة رجالاً لا يهمهم شيء الا كثرة تناول مرتباتهم . وهنالك فرق بين المحرر وبين غيره من الناس . لان خطأ المحرر مشهور ظاهر للعيان . وقد قيل ان رجال الدين اذا اخطأوا يستغفرون الله فيغفرلهم والمحامي قد يستعين بفطنته وجداله التخلص من خطأ وقع فيه . وكذلك المدرس والطبيب في قدرة كل منهم أن يعمل من الحيل ما يستر به خطأه . ولكن المحرر اذا اخطأ ظهر خطؤه واضحاً امام الناس وثبت في نفوسهم . فالمحرر حري بالتوقي من الزلة وحاول أن يستر خطأه او يرأب صدعه يستحيل عليه ان يخدع القارئين

ومهمة الصحافة في النهضة القومية ان تتناول توضيح شئون الامة لنفسها كي تتخذ خطة قومية حيالها ثم هي تقوم باظهار حقيقة امتها امام الامم الاخرى ثم تظهر حقيقة الامم الاخرى امام الشعب الذي تقوم على خدمته . وقد يكون التوضيح بطريقة سافرة فتسجل الحوادث الهامة يومياً ولن تقف جهود الصحفي على هذا التسجيل فحسب بل يجب ان يوضح بقلمه علاقة الحوادث بعضها ببعض . اكثر صحفنا يؤدي خدمة جليلة بتسجيل الحوادث المحلية وتوضيحها للشعب ليفضل الصحافة والمذياع الذي يستقي اخباره من الصحافة يوقف الشعب على كل ما يحدث في امته . وها هي مصر اليوم في نهضتها القومية مدينة بشعلة حماستها الوطنية التي تبهر بصر كل زائر بلادكم مدينة للصحافة التي تألو جهداً في اذاعة الاخبار لا نارة الرأي العام وانارة الحماسة الوطنية الى درجة لم تعرف من قبل . ويقلل من فضل الصحافة التي تنعكس على مرآتها صفحة الشعب للحكومة والحكومة للشعب عيب واحد وهو ان من يريد الوقوف على دقائق الأمور لا تكفيه صحيفة واحدة ولكنه في حاجة الى قراءة صحف عدة وهذا كما نعلم يحتاج الى تعديل في الصحافة ليكتفي القارىء بصحيفة واحدة . والصحافة متهمة اليوم بكثير من العيوب منها اثارة الرأي العام وعدم الدقة في كشف الحقائق والمغالاة في نشر حوادث الاجرام غير ان النقد الذي يوجه اليها بحق ناشيء عن حرية أكثرها وما تفرضه هذه الحرية من أثر في رواية الاخبار وكتابة المقالات وكل ما تنشره من الشئون السياسية . من المشاهد ان الصحف التي توالي الحكومة لا تظهر أي خطأ في أعمالها فجميع أخبارها تحيز لسياستها وكل مقالاتها مدح واطراء لها . ومن جهة أخرى نجد الصحف المعارضة للحكومة لا ترى شيئاً حسناً في كل ما تقوم به الحكومة فجميع اخبارها السياسية موجه ضدها وكل مقالاتها حملات منظمة عليها . لهذه الحملات العدائية وما تنطوي عليه من تجريح غير عادل للزعماء السياسيين نتيجتان :—

الأولى انها قد يأنف كثير من ذوي العقول النيرة والمقدرة النادرة عن الاشتغال بمسائل العامة وخدمتها فان سؤلاء السادة لا يحملون انفسهم ابدا على اشخاصهم والتدخل في كل كبيرة وصغيرة من شئون حياتهم بل والخوض في أخص حياة أسرهم والتعريض بها أمام جمهور قد يكون مريضاً . نحن نعرف رجالاً ممتازين كانوا يودون ان يقفوا حياتهم على خدمة وطنهم ولكن مقالات الجرائد في مناصبهم السداسحالت دون تحقيق أمنيتهم . وهنالك عيب أكثر خطراً وهو محاولة هدم ثقة الشعب التي يوليها زعامته الوطنية وحكومته النيابية . فكم من حرب ضروس شنتها الصحافة المعارضة على رجال الحكم وكان من نتائجها اضعاف ثقة الشعب في زعمائه حتى ليعتقد رجل الشارع ان كل هم رجال الحكم انما هو الإستيلاء على مرتباتهم في آخر كل شهر واستغلال مناصبهم لكسب شخصي لا يقره القانون

لقد أنشأت عدة جرائد صغيرة في أوقات مختلفة وكان مبدئي في تحريرها ان تكون مستقلة عن جميع الاحزاب فكنت امتدح الرجال واشد أزرهم لمجرد زاهتهم وقويم مبدئهم وليس لانتمائهم لاي حزب مهما كان لونه . وانني حين كنت أخوض معركة انتخابية اخلق فيها من أعتده — ومن الحق ان اقرر اني طالما خسرت في هذا السبيل — فاني كنت أحذر جرائدي من مهاجمة ذلك الموظف المنتخب الذي كنت أعارضه في انتخابه مالم يأت عملاً لا يقره القانون وتتوافر لدي أدلة لا تقبل الشك في انه اذا قدم للمحاكمة ثبت ادانته . هذه الخطة تؤلف بين ابناء الامة وتوحد صفوفهم واذا ما انحدت امة حول رجال الحكم فيها فانه لن يسهل على احد ان ينال منها او يتعجل الحوادث او يدعي النبوءة بنتائج ما قد تقوم به السلطة الادارية او التنفيذية من اعمال

ان الصحافة في مجموعها تحسن اداء واجبها عند توضيح علاقة المسائل الدولية بالمسائل الوطنية وما يتصل منها باعمال جمهور قرائها غير انه كثيراً ما تنشر الجرائد اخباراً لاقيمة لها مما يحدث في الممالك الاخرى فياحبذا لو وجهت جهودها الى الاتجاهات والعوامل الاساسية الوثيقة الاتصال والشديدة التأثير في احوال الامة او المجتمع . اما عمل الصحافة باظهار حقيقة امتها امام الامم الاخرى فما يزال يفتقر الى كثير من العناية ولست اقصد بذلك صحافة بلد خاص بل صحافة العالم اجمع — وهنا يجمل بي ان اقرر ان صحافة بريطانيا العظمى قد تقدمت مثيلاتها في العالم في توضيح حقيقة شعبها لشعوب الممالك الاخرى . فهم لمنوا الجرائد الانكليزية بانها « جرائد دعاية » لحسب ولكن هذه تسمية لاتنطبق على الواقع فانها صحافة وطنية سامية استطاعت ان تنشر للعالم اسمى ما في البلاد البريطانية من مثل عليا وافكار ناضجة

لو سئلت عن الخدمات الجليلة التي تستطيع الصحافة المصرية ان تؤديها في بناء مجدها القومي لقلت بلا تردد ان اعظم مجهود لها يؤتي اطيب الثمر يجب ان يوجه الى جعل مصر الحديثة

معروفة للعالم بحقيقتها . واني لا استطيع ان احكم على مدى معرفة الدول الاجنبية غير الولايات المتحدة الاميركية للبلاد المصرية لاني لم اعش طويلاً خارج بلادي اما عن الشعب الاميركي فان مصر الغابرة او مصر كما كانت ، معروفة حق المعرفة ، غير ان مصر الحديثة او مصر كما هي اليوم ، فمعرفة القوم بها ضئيلة . لمصر شهرة عظيمة لمجدها الغابر اما مجدها الحاضر فاني اخشى ألاَّ يكون كذلك. لقد جعلت مصر اليوم نفسها مسرحاً ومرآة لاسمها، اما يومها فاصبح مجهولاً لم تمسه العناية حتى يضح للعالم وونقه الجديد

فالرجل البادي والمرأة العادية في اميركا لا يعرفان عن مصر سوى انها بلاد الاهرام وابي الهول وقبور الفراعنة يجدر فيها نهر نحو الشمال فيخصر الارض سنوياً عائداً متجهاً الى البحر

وعلى هذا فمصر مملكة تسهوي السائح بضعة ايام يجول في ربوعها ويطوف في ارجائها ليعود وجيوبه عامرة بالجاملين والتمائم وعلى حقيبة سفره بطاقة الترن دليلاً على انهُ زار الارض التي عرب منها بنو اسرائيل. فالاميركي العادي لا يعلم ان مصر بلاد لا مطر بها في بعض المناطق يسودها الجو المعتدل جل العام — وهو يجهل انها تنتج اجود انواع القطن ذي الشعرة الطويلة الممتاز في العالم — وهو لا يعرف فواكهكم وخضركم التي لا مثيل لها والتي تبدو لكم شيئاً عادياً — وهو لا يدرك ان مصر خير متنجع لفضاء العطلات وانها اليوم مكان لاقامة ملايين في الشتاء. فالاميركي الذي لا يعرف هذه المحاسن لا يزور مصر في الشتاء ويؤثر ان يذهب الى الجزائر او جنوب فرنسا وايطاليا او اسبانيا. واني شخصياً لآسف على اني عشت نصف قرن قبل ان ازور مصر لاول مرة . فاذا استطاعت صحافة البلاد ان تجعل من اهم اغراضها تبيان المكانة الممتازة التي تتبوأها مصر الآن وما لها من مجد وحضارة رائعة واذا استطاعت ان تصور كل ذلك امام العالم تصويراً بارعاً فانها اذن تساهم باوفر نصيب في النهوض بهذه البلاد

واخيراً اود ان ابين لكم ان مقام الصحافة السامي انما يرتكز على ثلاثة اركان

اولاً — توجيه الرأي العام وذلك بالتعبير عن رغباته . ثانياً — عرض التطورات العالمية على الشعب خصوصاً كان لهُ اثر مباشر في الاحوال المحلية قد يستفحل بمرور السنين . ثالثاً — عرض صورة لافراد الامة وشعبها وخصلاتها امام العالم

فاذا اردتم ان يكون في الامة شعب مستنير فلا بد ان يلم افراد هذا الشعب بالمشكلات الهامة واغراض السياسة . واذا كان لا بد من زعامة رشيدة فواجب السلطات التنفيذية ان تعرف حاجيات الجماهير وتأثيرات التطورات الدولية في المملكة. واذا كان للمملكة ان تنعم بالرفاهية والرخاء فيجب ان يصور شعبها بالمظهر اللائق به امام اعين العالم لتجه اليها الانظار وهذا المسلك يتيح الفرصة للصحافة لتأدية رسالتها في النهوض بالامة